الباب الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

الـولايـة

من أشـرف أنواع المنازل منزلة الولاية ومـعناها القـربة، وكلمـة ولاية مـشـتـقـة من الولاء، والولاء يعنى القربة والنصرة والمحبـة، وقـد ابتلينا فى زماننا هذا «بشرذمة قليلين» من الناس أولوا الولاية وفسروها على معانى لا تليق بحقيقة الولاية وتساهلوا فى تفسيرهم لها ولم يضعوها فى موضعها الغالى الحق الذى ينبغى أن تكون عليه، فمنهم من قال: إن الولاية مجرد درجة للإسلام فحسب، ومنهم من تشدد فقال، بل كانت فى الزمن الأول فـقط ومنهم من زعم أن الولاية هى درجـة رفع التكليف ومؤنة العبـادة، ومنهم من ظن أن الولاية مثل العقم والإنجاب، أى غير اختيارية فيقولون: إنه ربما يكون الرجل مواظباً على الطاعـات مسارعاً فى القربات سباقاً للخيـرات ولا ينالهـا، ويكون غيـره ممن لا يصلى ولا يصـوم ولا يحج ولا يفـعل شيء من أعـمـال الإسلام والبـر والخيـر ويكون ولياً لله وينال درجـة الولاية لأن الولاية محلها فى قلبه وسر بينه وبين ربه وربما هرولوا إلى مثل هؤلاء الصنف من الناس فتراهم يتبركون بهم ويتمسحون بهم، ويعكفون على قبور بعضهم طلباً منهم جلب نفع أو كشف ضر أو رجاء مصلحة أو دفع مفسدة، وكل ذلك من أعمال الجهل والجاهلية، وهو ليس من الإسلام فى شيء لأن الإسلام دين الحق ودين الإتباع لا يقبل الخرافات والخزعبلات المفـتـرية من صنع الناس أنفسـهم وقـد نسى هؤلاء الصنف من الناس أن

كلمة ولاية تعنى المتابعة والمعاهدة، أى متابعة الأعمال الصالحات والمعاهدة عليها.

وبالعقل نقول كيف يكون ولياً لله من خالف أمره وضيع فرضه؟ وكيف يكون ولياً لرسوله من حاد عن طريقته ورغب عن سنته؟

وكيف يكون ولياً للمؤمنين من رغب عن سلكهم وحاربهم بجهله وسفهه اللهم فلا ولله در القائل:

عبد الاكثر منهم صالحاً
ونبياً وولياً شهراً
كل قطر عندهم معبودهم
أشركوه بالذى قد فطر
وقبابًا فوقهم قد أسسو
خالفوا المختار فيما حذرا
كم حديث ثابت قد وردا
قد نهى الأمة مما صدرا
وأبو الهياج هذاك التقى
عن على المرتضى قد اخبرا
فمن تمثال مشرف
هدمه يروى وذا قد حررا

وذوو العلم بذاقـــد حكمـــوا

راجع الكتب تجـــد مـــا سطرا

ويبقى لنا أن نسأل ما هى حقيقة الولاية؟ فإن الولاية الحقيقية هى كلمة عظيمة غالية لها مدلولهاوكيانهاوالتفسير الأحق بها فى كتاب الله وفى أحاديث رسول الله ﷺ وقول العلماء الثقات فى ذلك ، فللولاية أنواع وأسباب وشروط وأسرار وعلامات.

obeikandl.com

الفصل الأول

أنواع الولاية:

الولاية ثلاثة أنواع محمودة، ومذمومة، وولاية ابتلاء.

أولاً المحمودة:

وهى أصفى وأنقى وأعلى وأسمى أنواع الولاية وهى كنز عظيم وخير جسيم وهى نعمة من أجلّ النعم، وعطية من أغلى العطايا من قبل الله تعالى لعبده بعد نعمة الإسلام. إذ إنها مطية العبد المجنحة تطير به إلى أعلى الدرجات وأسمى القربات إلى رب العباد سبحانه وتعالى، وبها تكون السعادة سعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة لقوله سبحانه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]

وهى على ثلاثة ضروب

ولاية الله سبحانه وتعالى، وولاية رسوله ﷺ وولاية المؤمنين، وقد بين لنا ذلك الحق سبحانه فى كتابه، وعرفنا حقيقة من نوالى ومن هو أحق بذلك من غيره، فقال سبحانه فى سورة المائدة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وبين لنا المولى سبحانه أيضا ما لهؤلاء الصنف من الناس الذين يتخذون الله ورسوله والذين آمنوا أولياء من دون غيرهم من أعدائهم بانهم هم المنصورون، وهم الغالبون وهم الناجون من كل كيد، وهم القاهرون

لكل عدو، وذلك نظراً لأنهم بولايتهم لربهم وقربهم من رسوله والمؤمنين صاروا من حزب الله، و هل يقهر حزب الله أو يغلب. قال مولنا سبحانه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

[المائدة: ٥٦].

أولاً ولاية الله:

ما أعظم أن يقال فلان ولى الله وأعظم منه أن يقول الرب سبحانه فلان ولى، وما أشرف وأكرم أن يصل العبد إلى هذه المنزلة الغالية و الدرجة العالية والنعمة الكبيرة الشامخة. فإن ولاية الله عز وجل درجةٌ صعبة المنال لا يؤتاها إلا من اختاره الله واصطفاه ووفقه إليها، وهى نعمة غالية ودرجة عالية وقمة شماء تنخلع الرءوس عند ذراها، وتدمى الأقدام إلى مرتقاها، فمن شمر إليها طاب مسعاه حتى يؤتاها، وحيث إنه كان حتماً على كل عبد ولابد ان يتولى الله جل وعلا ويتخذه دون غيره من خلقه ولياً أولاً فيتبع أوامره وينتهى عن نواهيه، وإلا فَمَنْ يُتَوَلَّى غير الله ومن يُتَّبَع سواه سبحانه ومَنْ غير الله كائن مَنْ كان أحق بالولاية منه سبحانه، وهل هناك من هو أهلاً لذلك، كيف وأن الله عز وجل هو الخالق والمصور وهو المحيى والمميت، وهو الآخذ بالنواصى، وهو الفعال لما يريد، فواجب على كل إنسان أن يتولى ربه الخالق، إذ أنه ليس له من دونه ولياً أولاً أحق بهاوفى ذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧].

وكلمة ولاية الله ليست كلمة سهلة أو لفظات هينة أو حروف لينة،

وإنما تهدف فى جوهرها إلى غاية سامية، وهمة عالية وليست هذه الغاية وتلك الهمة تأتيان من فراغ، ولكن بعد سعى فى طلبهاوكفاح من أجلها وبيع الغالى والنفيس فى تحصيلها ومكابدة القيام فى الظلمات، والعزف عن لذات الدنيا والشهوات، و بعد كل ذلك الجهد يصبح العبد لم يقدم إلا اليسير من العمل لنيل المراد، وذلك لأن ولاية الله شرف ما بعده شرف، وكرم ما بعده كرم. وذلك أن العبد المتنعم بها دائماً فى حضرة ربه ويسكن فى حصنه ويمتطى طاعته قاصداً وجهه ويلبس لذلك ثياب التقوى، وينتعل بالزهد، ويتعمم بالمعرفة، ويتزين بالورع ويسرع بالخشية. فهو يحيا فى جنة عالية قطوفها دانية. يقطف من ثمرها وينهل من طعامها، ويكرع من أحواضها، و يمرح فى رياضها ويسبح فى أنهارها. فطوبى له وحسن مآب.

فولاية الله تعنى متابعة طاعته واجتناب نهيه على سبيل الديمومة. وولاية الله تقتضى من العبد أن يكون آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وذلك لتحقيق فضيلة الإيمان الذى به تكون الولاية محققة. فيقول الحق سبحانه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن منطلق هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن خيرية هذه الأمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله تعالى وكذا. هى فضيلة من فضائل الولى.

ولولاية الله جل وعلا أسباب وشروط وعلامات وأسرار وذلك ما سنبينه فى الفصول التالية إن شاء الله تعالى.

ثانياً: ولاية الرسول ﷺ :-

وولاية الرسول ﷺ من ولاية الله، وهى ولاية واجبة على كل إنسان مسلم بالغ عاقل. ودليل ذلك قول الحق سبحانه فى كتابه على لسان رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله سبحانه ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فقد أوجبت هذه الآيات الكريمات ولايته ﷺ وليسأل سائل لماذا نوالى رسول الله ﷺ؟

نجيب على هذا السؤال فنقول: إنه من المعقول والمألوف والمعروف أنه إذا قدم إنسان لآخر معروف ينفعه حفظ الآخر المقدم له ذلك المعروف، ورده إلى من قدمه له بالجميل والحسن، وكان حتماً عليه أن يكون محباً ومطيعاً لمن قدم له ذلك المعروف، وهل هناك معروف أعظم وأجل وأكبر من النجاة من النار والفوز بالجنة. فإذا كان العبد يقدم لأخيه معروفاً دنيوياً مادياً عَمَّا قريب سوف يفنى ويبيد حُقَّ بذلك المعروف القليل له حب وطاعة من قدمه له فى الدنيا، فكيف بمن أخذ بالأيدى إلى الجنة، وكان سببا لبعدها عن النار وعذابها وسمومها وحرها وشرها، والإبدال مكانها جنة عالية قطوفها دانية عرضها كعرض السموات والأرض يسرح فيها وينعم كيف شاء لا يفنى نعيمها ولا ياسن ماؤها ولا تفنى أنهارها ولا ينفد ثمُرها ولا تموت حورها وهو خالد فيها بإذن الله.

أما كان حقاً على من قُدم له ذلك المعروف أن يكون محباً ومطيعاً وموالياً لمن قدم له ذلك المعروف، فنحن نوالى رسول الله ﷺ لانه كان سبباً بإذن الله تعالى فى هدايتنا، ولأنه والى ربه وأحبه وحبيب الحبيب حبيب، ولأنه ﷺ سبباً بإذن الله فى نجاتنا من نار الجحيم ومرار أليم وعذاب مقيم.

لأنه ﷺ كان سبباً بإذن الله فى نقلنا من الجهل إلى العلم، ومن الظلمة إلى النور، ومن البغى إلى الطاعة، ومن الفجور إلى ا لاستقامة ، ومن الظلم إلى العدل، ومن الباطل إلى الحق. فنحن نوالى رسول الله ﷺ لذلك أما ترى كيف مدحه ربه فى كتابه ووصف حبه لأمته ورحمته ورأفته بها فقال سبحانه ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨]. فكفى بهذه الآية الكريمة سببا ودليلاً لمحبة وموالاة هذا الرسول الرءوف الرحيم بأمته الحريص على إيمانها ودخولها الجنة رسول يعز عليه عنت وتعب ومشقة أمته فى كل الأمور وفى الحروب والقتال والصبر على تمكين دين الله الحق سبحانه فى الأرض أن تتخذه حبيباً وتواليه وتطيع أمره وتنتهى عن نهيه، فتكون بذلك قد قابلت الحسنة بالحسنة والمعروف بالمعروف.

وقد جاء فى تفسير الآية السابق ذكرها للصابونى: « أى لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر من جنسكم، عربى قرشى يبلغكم رسالة ربكم. عزيز عليه ما عنتم أى يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه، حريص عليكم أى حريص على هدايتكم ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى رءوف بالمؤمنين، رحيم بالمذنبين، شديد الشفقة والرحمة عليهم، وقال

ابن عباس: قد سماه الله تعالى باسمين من أسمائه وهما «رءوف رحيم»[1].

وكان حق على أمة كان هذا رسولها موالاته وإتباعه، بل وبيع الغالى والنفيس من أجل طاعته وطاعة من يرتضى لنا طاعته.

ثالثاً: ولاية المؤمنين

وهذا النوع من الولاية نوع محمود وبه تكمل دائرة الخير فى الولاية والاتباع والمحبة والنصرة، وبه يصبح المؤمن أهلاً للخير جهداً فى الإقدام عليه، وهى نوع واجب على كل تقى، وتجب على المؤمنين بعضهم لبعض، أن يكونوا أولياء وأن يكون المؤمنون أخوة متحابين متعاطفين متقاربين متراحمين متباذلين متواصلين متحدين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، كما علمنا ذلك نبينا ﷺ وأن يكون المؤمنون متنافسين فى الطاعات، متسارعين فى الخيرات فإن من كان هذا حاله وتلك صفاته استحق بفضل الله تعالى أن ينال وسام الشرف الربانى من قبل الحق سبحانه بأن يصبح واحداً ممن ذكرهم الله فى كتابه، وخصهم بالذكر وشرفهم بذلك حيث قال سبحانه [التوبة: ٧١].

وقد جاء فى تفسير هذه الآية[2]. أى هم إخوة فى الدين يتناصرون ويتعاضدون. وقد قال العلماء فى هذه الآية: إن أولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم وأعداء الله تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

---

(١) راجع صفوة التفاسير للصابونى فى تفسير سورة التوبة آية (١٢٨).

(٢) راجع صفوة التفاسير للصابونى التوبة آية (٧١).

ثانياً : الولاية المذمومة

وهى شقان : ولاية دعوة، وولاية قربة (أى وساطة)

وكلاهما أشد قبحاً من الآخر وكل نوع منهما شر من الآخر منقلباً وشر عاقبة أعاذنا الله منهما وليحذر كل فطن أريب أن يقع فى دائرة إحداهما السوداء فتهوى به إلى أسفل السافلين.

أولاً ولاية الدعوة:

ومعناها العبادة وهى نوع قبيح المقصد فاسد العقيدة سىء العاقبة، والمقصود بالدعوة أى العبادة مثل دعوة الأصنام من دون الله والشمس والقمر والنجوم ودعوة العباد من دون الله من الإنس والجن ونحوه.

وحكم معتنق وصاحب هذا النوع من الولاية كافر ضال عن سبيل الله وفاسق وفاجر بإجماع الأمة ودليل ذلك من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقول الحق سبحانه: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾[المؤمنين:١١٧]

وقوله سبحانه ينهى نبيه وأمته ويأمره بالبراء من هؤلاء الصنف من التعساء قوله سبحانه : ﴿ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الأنعام:٥٦]. وجاء فى تفسيرها للصابونى « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله »

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنى نهيت أن أعبد هذه الاصنام التى زعمتموها وعبدتموها من دون الله. «قل لا اتبع أهوائكم» أى فى عبادة غير الله. وفيه تشبيه على سبب ضلالهم، فما هو ذلك التشبيه؟ ألا وهو قوله ﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾ أى قد ضللت إذا اتبعت أهواءكم ولا أكون فى زمرة المهتدين. فمن خلال هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الدعوة فى هذا المقام يقصد بها العبادةلغير الله.

وقد أجمع المفسرون على أن كلمة دعوة أو أدعو تعنى أعبد عبادة، وقد جاء ذلك موضحاً ومبيناً فى سورة مريم فى الآيتين«٤٨, ٤٩» يقول الحق سبحانه على لسان نبيه وخليله إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩] ففى الآية الاولى قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾، وفى الثانية قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ إذاً فكلمة دعوة تساوى كلمة عباده وجاء فى الحديث عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال (الدعاء هو العبادة)[1]. وقد تحدث المولى سبحانه فى كثير من مواضع القرآن الكريم عن هذه العبادة المقصودة بكلمة دعوة ناهياً ومحذراً من إتباعها فمثلاً قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] وقوله سبحانه أيضاً مرهباً ومحذراً

---

(١) الحديث اخرجه ابو داود (صح ١٤٧٩) والترمذى (٥ ح ٢٨٧٧) وابن ماجه (٢ ح٣٨٢٨) وابن حبان واحمد وسنده (٤ ح٢٧١) وابو نعيم فى الحلية واسناده صحيح.

منها ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخراً لا برهان له به﴾ أى ومن يعبد مع الله إله آخر لا حجة معه فى عبادته ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أى جزاءه وعقابه عند ربه وسماهم المولى كافرين لأن الذى يعبد غير الله مع الله فقد كفر بالله تعالى؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ وبين لنا المولى سبحانه أيضاً أن هذا النوع من الولاية نوعٌ فاسد وقبيح وأهله أهل ضلال وهم على باطل، وهم بباطلهم هذا وضلالهم وعبادتهم المزعومة أهل ضلال لا يفقهون ولا يعقلون لا يبصرون ولا يسمعون ولو كانوا يفقهون أو يعقلون أو يبصرون أو يسمعون. لفكروا بعقولهم ولو لمرة واحدة فى هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله هل يملكون لهم دفع ضرٍ أو جلب نفع كيف وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك لأنفسهم فكيف لغيرهم فأين ذهبت العقول المتذكرة، وأين ذهبت العيون المبصرة لأن حقيقة الإبصار فى رؤية الحق حقاً واتباعه، ورؤية الباطل باطلاً واجتنابه فأين ذهبت العيون المبصرة؟ وأين ذهبت الأسماع المنصتة؟ حتى يتيقن أصحابها بأنهم على باطل وعبادتهم مزيفة لذلك قال الله سبحانه معجزاً لهؤلاء السفهاء: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء:٥٦] وفى سورة النحل قال موبخاً لهم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [سورة النحل:٧٣] وخرج أبو وهب عن عبدالله بن عمر قال: «من كان يزعم أن مع الله قاضياً أو رازقاً أو يملك لنفسه ضراً أو نفعاً أو موتاً أو نشوراً لقى الله فادحض حجته، وأخرس لسانه وجعل صلاته هباءاً منثورا وقطع به الأسباب وكبه فى النار على وجهه».

فهذا كله جزاء لمن زعم على سبيل الظن لأن ظنه هذا صار شركاً عظيما لا يغفره الله إلا إذا شاء سبحانه لقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] وفى أخرى ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١١٦].

وفى سورة سبأ تحدياً آخر من المولى سبحانه لهؤلاء الملتبس عليهم بالضلالة ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

وكان الله تبارك وتعالى يقول لهم انظروا إلى آلهتكم الذين دعوتموهم من دون الله ارتضيتم لعقولكم بعبادتهم وعطلتموها عن التفكير والتمييز، وعطلتم جانب العبرة والعظة فى ما ترون من ضعفكم وضعفهم فأى عقل هذا منكم الذى وافقكم فى عبادة الضعفاء العجازى الذين لا يملكون كشف ضر أو جلب نفع ولا يملكون بطشاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا شيء أبداً فادعوهم كيفما شئتم وأرونى بعد ذلك ماذا يستطيعون أن يقدموا لكم من شيء، بل قد وصل بكم السفه والغباء والحماقة إلى أنكم تركتم عبادة الخالق سبحانه وأنتم تعترفون بانه الرب الخالق وحده واتجهتم بالدعوة والعبادة إلى مخلوق ضعيف، ذليل فقير حقير مثلكم بل أقل منكم لا يخلق شيئاً، ولا يملك شيئاً وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا ﴾ [الأحقاف: ٤] فَمَنْ أحق أيها الجهال المفترين بالدعوة والعبادة الخالق العزيز أم المخلوق الذليل الغنى القوى أم

الفقير الضعيف؟

فإن الناظر إلى هذه الآيات الكريمات يجد أنها تبين فضائح وجهل وقمة غباء وحقارة هؤلاء الصنف من الناس الذين اعتقدوا بولاية الدعوة لغير الله. فقادهم اعتقادهم لغير الله هذا المشئوم الفاسد المذموم إلى الخزى فى الدنيا والحسرة والندامة فى الآخرة وغضب رب العالمين عليهم ولعنته إياهم، أعاذنا الله. ولله در القائل:

تدعون غير الله ذى الجلال ... فى جلب نفع أو لدفع ضر
وبرئ سقم وارتفاع شر ... من ليس يغنى نفسه من ضرها
ومن لم يطق إنقاذها من فقرها ... وتستمدون من الأموات
تيسير عسر وقضا الحاجات ... ألم تروا أن الدعاء عبادة
لا يمترى فيه ذوو الشهادة ... فمن دعا غير الإله أحدا
ليمنحه الخير أو يكفيه الردى ... فإنه لمن دعاه عابد
سواء الجاهل والمعاند ... وفى ثبوت النهى فى الكتاب
دلائل لمبتغى الصواب ... يكفيك أن الله قال ادعونى
كمثل ما قد قال ... فاعبدونى

ثانياً: ولاية القربى: (الوساطة)

وهى نوع مذموم مردود على صاحبه، وداء عضال وجهل بالحقيقة إذ أنه

ليست هناك واسطة بين الخالق سبحانه والمخلوق إلا فى تبليغ ما أنزل عليهم من تشريع وهدى وإنذار وتكليف وقد زعم بعض الملتبس عليهم من الناس أنه إن لم يتخذ فى دعوته لكشف ضُرٍ أو لجلب نفع واسطة بينه وبين الله فى أن يتخذ فى دعوته نبياً أو ملكاً أو ولياً أو شجراً أو حجراً ونحوه كواسطة بينه وبين الله فى دعوته لم تصح دعوته. وهذه عقيدة فاسدة لانها عقيدة المشركين المارقين، وعقيدة عبدة الاصنام لانهم ما عبدوها إلا من هذا القبيل كانوا يتمسحون بهاويتبركون رجاء أن تنفع أو تدفع ضر ونحوه، وإذا ما سئلوا عن ذلك أجابوا على الفور أنهم يفعلون ذلك فى عبادتهم إياهم ليكونوا وسطاء إلى الله ومقربيهم له، وفى ذلك يقول الحق سبحانه :﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] ولأنه لم يتقرر فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ الوساطة فى الدعوة بل ما تقرر عكس ذلك تماماً ففى قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] فيها إفادة بأنه ليست فى دعوة الله وساطة لكن الوساطة تكون فى الأمور التشريعية والحياتية فقط أما فى الدعوة فهى مرفوعة ولا ينبغى أن تتخذ مثل هذه الواسطة دعوة إلى الله وفاعلها آثم بل مشرك والعياذ بالله.

ففى كل الأمور التشريعية العملية قال المولى لنبيه ﷺ فى كتابه فى كثير من مواضع القرآن الكريم عن إجابته للسائلين عن المسائل التشريعية قال له قل: مثل يسالونك (عن الخمر والميسر قال قل) ويسالونك عن

المحيض قال له قل: ويسألونك عن الأنفال قال قل: ويسألونك عن الأهلة قال قل، وكل هذه أمور تشريعية وتكليفية وعملية تحتاج فى تعلمها إلى مصدر وثيق، فجعل الله فى مثل هذه الأمور التشريعية والعملية والفقهية واسطة بينه وبين خلقه -وهو نبيه محمد ﷺ- ولكن فى الدعاء والدعوة لم يجعل هذه الواسطة لأن الله سبحانه أقرب إلى خلقه منهم لأنفسهم ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وأنه سبحانه قريب مجيب كما أخبر فى كتابه فقال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] لم يقل وإذا سألك عبادى عنى قل إنى قريب بل قال فإنى قريب لأن الواسطة مهما كانت لا تستطيع أن تعمل فى هذا المجال الربانى وقال سبحانه أيضاً: ﴿ **ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر: ٦٠].

لم يقل سبحانه ادعوا أنبيائى ولا ادعوا ملائكتى ولا ادعوا أولیائى ولا ادعوا الصالحين والمقربين واستجلبوا منهم النفع ودفع الضر فيطلبون منى ذلك إليكم ويسألوننى إياه فأستجيب لهم، ولكن الله سبحانه أراد أن يُعلم عباده درساً عظيماً كريماً ألا وهو أن الله سبحانه منهم قريب ومجيب وهو أقرب ما يكون من المخلصين وهو أرحم وأحن وأكرم على العبد من الأم بولدها، فلم يرض سبحانه لعباده الذل لغيره فى مطلب النفع أو فى كشف الضر، إنما جعل ذلك منه إلى داعيه مباشرة من غير واسطة، وهو سبحانه يحب العبد الملحاح فى الدعاء أى الذى يلح على الله فى دعائه ويكثر، وهو يحب أن يلجأ عباده إليه وحده دون غيره فى مثل هذه الأمور ولكن الذى يذهب إلى غيره من نبى أو ولى أو يطلب الكشف أو

الدفع أو الجلب من ميت أو حجر أو شجر ونحوه فالله يغضب عليه لأنه قصد غيره وظن أنه يستطيع أو يقدر أن يفعل شيئًا من هذه الأمور، ولذلك ورد في الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه قال ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(١) وقوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢] إعجاز لكل المخلوقات أن تقدر على ذلك سواه فهو وحده يستطيع فعل ذلك فهل يقدر المدعو من دونه بقصد ذلك فعل شيء ولو دقيق في كشف السوء أو جلب النفع، أو من الذي يقدر على ذلك كله؟ فاعلموا ذلك يا أولوا الألباب واعقلوه جيدا.

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة» فمن خلال هذه الآيات الكريمات القرآنية والأحاديث النبوية يتبين لنا أنه لا وساطة بين الخلق والخالق في الدعوة، أما في التوسل فقد قال العلماء فيه أنه لم يثبت التوسل عن الأنبياء بعضهم ببعض ولم يثبت عن الصحابة بالرسول بعد موته ونحن نقول هذا الكلام بالحجة والدليل للذين يذهبون إلى الأموات في أضرحتهم وفي قبورهم ويتوسلون بهم نقول: إنه لم يثبت ذلك وهو أمرٌ ظاهره الابتداع وليس من الإسلام الصحيح وقد قسم العلماء التوسل إلى قسمين: قسم مشروع، وقسم ممنوع، والمشروع قسمان:

١- التوسل بالإيمان بالله وبرسوله وبالأعمال الصالحات ولم يقع في هذا خلاف فهو جائز أن يتوسل الإنسان لله في دفع ضر أو لجلب نفع بإيمانه بالله أو بإيمانه برسوله وملائكته أو بعمل صالح فيقول مثلاً:

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في السلسلة.

اللهم إنى أتوسل إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وبإيمانه. وبرسوله فيقول: وإنى أشهد أن محمداً عبدك ورسولك ويتوسل بالأعمال الصالحة فيقول: وبأنى أعبدك وحدك لا أشرك بك شيئاً أو يذكر نوعًا من العبادة فهو جائز مثل أنه تصدق أو صام أو فعل خيراً سراً أو جهراً له أن يذكر هذا الخير. وذلك ثبت أيضاً عن النبى ﷺ فى حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحدرت عليهم صخرة عظيمة فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لن ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم وبالفعل دعا كل واحد منهم بعمل صالح كان قد عمله لله فاستجاب لهم الله فانفلقت الصخرة وخرجوا يمشون».

٢- القسم الثانى من المشروع وهو التوسل بالنبى حياً وذلك كان فى عهده ﷺ أما الآن بعد موته لا يجوز التوسل به ميتاً ﷺ وقد أجاز العلماء التوسل بالرجل الصالح حياً مثل أن يقول اللهم إنى أتوسل إليك بحق حبك لفلان العبد الصالح أن تفعل كذا كما فعل عمر بن الخطاب بالعباس عم رسول الله ﷺ عندما أجدبوا وصلى صلاة الاستسقاء وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا سألناك بنبيك أن تسقنا والآن نسألك بعم نبينا العباس.

القسم الثانى: الممنوع :-

وهو التوسل بالأموات ولو كان النبى نفسه ﷺ فلا يجوز التوسل به ميتاً، والوارد الجائز التوسل به حياً ودليل ذلك أنه ﷺ جاء من يتوسل به

فى أن يدعو له ودعا له كمثل عكاشة بن محصن عندما قال يا رسول الله ادعو الله أن يجعلنى منهم – أى من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب – فقال: أنت منهم. والأعرابى الذى طلب من الرسول ﷺ أن يستقى لهم. والأعمى طلب أن يرد عليه بصره فرده والمرأة السوداء التى كانت تصرع وتتكشف فسألت النبى ﷺ ان يدعو لها فقال لها: إن شئتى دعوتُ الله فشفاكى وإن شئتى صبرتى ولك الجنة قالت أصبر ولى الجنة، ولكنى أتكشف فادعو الله ألا أتكشف فدعا لها فما تكشفت بعد. وهذا النوع قد انقطع بموته ﷺ.

والدليل الآخر على حرمة التوسل به ميتاً أنه بعد موت أبى بكر وفى خلافة عمر بن الخطاب انقطع المطر، وأراد عمر أن يستسقى وطلب من العباس عم رسول الله أن يدعو لهم، وقال اللهم إنا كناإذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقنا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فقال قم يا عباس فادع الله لناوذلك رواه البخارى فى الصحيح وذلك دليل أكيد على حرمة التوسل به ميتاً، ولو كان ذلك جائزٌ أو صحيحٌ لفعله عمر وتوسل ولفعله من قبله ومن كان بعده وتوسلوا بنبينا ميتاً، ولكن نظراً لأنه غير جائز وغير مشروع فلم يفعلوه.

النوع الثالث: ولاية الابتلاء

وهى ولاية الحكم والسلطة والخلافة فى الأرض وهى إما أن تكون محمودة، وإما تكون مذمومة.. فتكون محمودة إذا رشد الولى فى ولايته، وعدل فى حكمه واتقى مولاه فى ولايته وسعى بها إلى رضاه ولم يخش فى ذلك لومة لائم .. وهذا النوع من الولاية أطلقت عليها اسم ولاية

الابتلاء لأنها حقاً بلاء عظيم الخطر، فهى مسئولية تلقى على عاتق صاحبهاويحملها بثقلها لينظر الله ماذا يصنع فيها هل يتقى مولاه ويراقبه، أم يغره ملكه وتغره ولايته ويغره حكمه وأمره ونهيه فيتكبر ويتجبر وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ :« أن الدنيا حلوة خضرة وأن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء(١) وهذا الحديث يبين لنا درساً عظيماً فلو نظرنا إلى قوله « فينظر كيف تعملون » أى يضعكم فى موضع اختبار وابتلاء، فمن أصاب فيما اختبر فيه وأحسن الصبر وحفظ الله تعالى فيما ولاه إياه فاز ونال أعلى الدرجات، ومن كانت له الثانية والعياذ بالله فقد خسر خساراً مبيناً وولاية الابتلاء هذه سميتها ابتلاء لأنها بها يكون العبد خليفة الله فى أرضه على عباده يفعل مع عباد الله بالأمر والنهى فيجب عليه أن يتفانى فى أن يكون حريصاً على أهلية ما ولاه الله فيكون حريصاً على رعاية وكفاية من سلط عليه وإلا إذا جاع أحدهم أو عرى أو ظلم ولم يجد من ينصفه أو يسد جوعته أو يقضى حاجته كان ذلك حسرة على واليه وهذا النوع ابتلاءه شديد وخطره يسير على صاحبه سواءً كان عادلاً أو ظالماً أو تقياً أو جائراً لأنه إن كان عادلاً فلن يهنأ له العيش ولن يرتاح له بال خشية أن يكون من بين رعيته مظلوماً أو محتاجاً عسر عليه سد حاجته فيدعو على واليه فتستجاب دعوته أو يشكوه إلى الله فتستجاب شكواه وينتصر له لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب وقال لها الله حالفاً بعزته وجلاله « وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين »(٢).

---

(١) ذكره النووى فى رياض الصالحين ص « ١٧٥ ح ٤٦٣ »

(٢) أخرجه مسلم (٤ ح ٩٩) والترمذى وابن ماجة وأحمد فى مسنده والبيهقى فى المسند « ٧ ح ٣٦٩ »

وذكر الإمام الذهبى فى الكبائر «إن دعوة المظلوم لترفع فوق الغمام ويقول الرب تبارك وتعالى «وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» ولله در القائل:

توق دعـــا المظلوم إن دعـــائه ... ليرفع فوق السحب ثم يجاب

توق دعـا من ليس بين دعـائه ... وبين إله العـالمين حـجـاب

ولا تحـــسبن الله مطرحـــاً له ... ولا أنه يخـفى عليـه خطاب

فـقـد صح أن الله قـال وعـزتى ... لأنصـــر المظلوم وهو مـشـاب

فمن لم يصدق ذا الحديث فإنه ... جـهـول وألا عـقله فـمـصـاب

وقد أوصى النبى ﷺ معاذ حين بعثه إلى اليمن قائلاً: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) رواه البخارى ومسلم، وإن كان ظالماً وجائراً فإن بليته ومصيبته أشد وأعظم، إذا أنه فى بلاء وهو لا يشعر فإن ألم من يشعر بالجراح يهون من آلامه شيئاً عمن تنزف جراحه ولا ترقأ دمائها وهو لا يشعر، وكفاه على ما هو عليه من غفلة قلبه وجهله بالخطر الذى هو عليه والعاقبة التى تنتظره مصيبة وبلية فيصير يتخبط حتى تعاجله منيته فيكشف حين ذاك عن غطائه ويصير بصره حديد ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] فيا ويله ويا حسرته ويا ندامته حيث يقتله الندم ثم لا ينفعه

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن حديث عائشة وذكره الذهبى فى الكبائر ص (١٠٤ ح٥)

وكذا الخزى وإنه لأحرى بنا فى هذا المقام أن نكشف عن جم خطرهذا النوع من الولاية فإن الذى يعرف خطره لا يطلبه وإن عرض عليه كرهه وهذه أمثله للرجال العقلاء الذين فهموا حقيقة الخطر الذى فى هذه الولاية.

فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وهو الذى مدحه رسول الله ﷺ وقال عنه لو وضع إيمان الأمة فى كفة وإيمان أبى بكر فى كفة لرجح إيمان أبى بكر وزكاه فقال: لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء حتى يجمع الله بيننا عنده»(١). وهو الذى شرفه ربه فى أن أنزل فى حقه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة إذ قال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وهو الذى أرسل له الله سبحانه رسالة من السماء وذلك أعلى أنواع التشريف والتكريم مع جبريل عليه السلام أن قل لمحمد قل: لأبى بكر إن الله قد رضى عنك فهل أنت راض عن الله؟. فما لبث أن بكى حتى ابتلت لحيته وقال: أنا عن ربى راض أنا عن ربى راض ثم قال: والله له كانت إحدى قدماى فى الجنة والأخرى خارجها لا آمن مكر الله. ومع ذلك الخوف والحب والكرم كله والتشريف عندما تولى الخلافة على المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ وقف فيهم على المنبر خطيباً فتكلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت، فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه

---

(١) سيرة ابن هشام (ج ٤٠٣ تراث ص ٦٥٠).

إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم بالبلاء أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله..(١)

ومن عظيم خطر هذا النوع من الولاية ما ذكره أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله (وقال عمر لأبى ذر رضى الله عنهما حدثنى بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قال سمعته يقول :« يجاء بالوالى يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلا زال عن مكانه فإن كان مطيعاً لله فى عمله مضى فيه، وإن كان عاصياً لله عز وجل انحرف به الجسر فهوى به فى جهنم مقدار خمسين عاماً، فقال عمر: من يطلب العمل بعد هذا يا أبا ذر؟ قال: من سلت الله أنفه والصق خده بالتراب ».(٢)

ومن الترهيب الشديد من خطره ما ذكرة الغيلانى وأبو طالب المكى قال:« عن أبى هريرة رضى الله قال: قال رسول الله ﷺ « ما من أمير عشرة إلا يؤتى يوم القيامة حتى يفكه الله بعدله أو يوبقه بجرمه »(٣)

وهذا النوع من الولاية كى يكون محموداً فلا بد له من شروط نذكر منها:

---

(١) ابن هشام فى السيرة (ص ٦٦١،ج٣)

(٢) ذكر القرطبى فى التذكرة ص ٣٤٧ فى باب الولاة، وقال ذكره أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله.

(٣) ذكره القرطبى فى التذكرة ص ١٤٦ فى باب الولاة وذكره أبو طالب العنلانى.

١- الكراهية له وعدم طلبه والحرص عليه والتواضع لله فى عبادته إن أخذه والحريص عليه والمحب له والطالب له لا محالة مفتون قلبه ولو ولى الحكم مفتوناً بظلم وتجبر وتكبر وأغراه سلطانه وأمره ونهيه فينسى نفسه أنه عبد حقير فقير إلى الله وتسول له نفسه وشيطانه أنه الآمر الناهى بأمره ونهيه فيكون ذلك سبباً لخروجه عن شرع الله بفتنته هذه ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ كما أخبر الله فى كتابه.

وقد كان النبى ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدين لا يولون المناصب والحكم لمن يطلبها لعلمهم بافتتان قلبه وعدم معرفته بخطره وجهله لسوء عاقبته. فعن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: «دخلت على النبى ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال احدهما: يارسول الله أمّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلك فقال: «إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه»(١) لعلمه ﷺ أن الحريص مفتون، وأن الكاره حتماً يعرف خطره الجسيم وكربه العظيم لذلك هو يخاف من فتنته وسوء منقلبه؛ ولأن أول ما يعرض على صاحب المنصب من الفتن فتنة (الهوى) اتباع الهوى وذلك الهوى قمة الغرور وشر الفتنة لأنه يجر خلفه كل بلية لصاحبه فيضله عن سبيل الله، وينسيه يوم الحساب، ويصده عن طريق الصلاح والخير، ويلقى به إلى طريق الشر والظلم والعياذ بالله؛ لذلك فإن الله جل وعلا قد بين لنا ذلك فى كتابه فإنه سبحانه يحذر من اتباع الهوى نبياً من أنبيائه قد ولاه فى الأرض

---

(١) أخرجه البخارى فى الفتح (١٣/ح ٧١٩٨) والنسائى وأحمد فى مسنده (٣/ح ٩١) وذكره النووى فى رياض الصالحين ص (٢٣٨/ح ٦٨٥).

واستخلفه فيها على عباده وهو نبى الله داود قال سبحانه : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] فذكر سبحانه فى وصيته لخليفته ونبيه داود أن اتباع الهوى أولاً : يضلل العبد عن سبيل الله، وثانياً : ينسيه يوم الحساب. ويكون ذلك سبب فى عذابه الشديد يوم الحساب.

وذكر القرطبى قال: وروى الأئمة عن أبى حميد الساعدى عن النبى ﷺ أنه استعمل رجلاً من بنى أسد يقال له ابن اللتيبة على الصدقة فجاء فقال: هذا لكم، وهذا أهدى لى فقام النبى ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: « ما بال العامل نبعثه فيجيئ فيقول هذا لكم وهذا أهدى لى أفلا يجلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا، . . . يأتى أحدكم بشيء من ذلك إلا جاء يوم القيامة إن كان بعيراً فله رغاء وإن كان بقرة فلها خوار أو شاة تبعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتا إبطيه ثم قال: اللهم هل بلغت . . اللهم هل بلغت[1] .

---

(١) رواه الأئمة عن أبى حميد الساعدى.

الفصل الثانى

أسباب الولاية

من حكمة الله تعالى أنه جعل لكل شيء سبباً، وذلك آية منه ليتوكل عليه القاصدين من عباده ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أى كافيه، كما قال المفسرون فلابد من التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، فنحن مطالبون بها، أما النتائج فهى على الله، فإن كل القوى بأسرها تعجز أمام قوة الله فى تحقيق هذه النتائج ونظراً لما سبق ذكره فى الأخذ بالأسباب فإن درجة الولاية درجة عالية الفضل، ولكى يتحصل عليها الإنسان فلابد أن يتخذ لتحصيلها أسبابا فهى درجة عالية وقمة شماء صعبة المنال لا يؤتاها إلا من وفقه الله إليها لذلك فهى أجدر الأشياء فى مقصدها بالتوكل على الله مع الأخذ بالاسباب وأسباب الولاية هى:

١- التغيير من حال إلى حال لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] فيغير العبد حاله السيء الذى لا يرضى ربه ولاترضى عنه فطرته التى فطره الله عليها من حال الغفلة والقساوة والجفاء والتكبر والتجبر والعجب والخيلاء والفخر والرياء.. وهلم جرا فيبدأ بالتوبة والإقلاع عن الذنوب كبيرها وصغيرها ما استطاع لذلك سبيلاً يقول عز من قائل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

٢- طاعة الله فيما أمر والانتهاء عما نهى لقوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ [المائدة : ٩٢] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] فمن خلال هذه الآيات يتبين لنا أن طاعة الله مفروضة على كل إنسان والحرص عليها واجب .

٣- الإتباع وهو إتباع النبى ﷺ فيما جاءنا به والحرص عليه والتمسك به لأن فيه الهداية والبعد عن شرور الضلالة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشرة : ٧] وقوله ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » وقوله سبحانه على لسانه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الاعراف : ١٤٨] وقوله : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] .

٤- الاقتداء بالصحابة والسلف الصالح والتشبه بهم لأن فى الاقتداء بهم والتشبه الهداية وسلوك طريق الحق سبحانه والعزو بعيداً عن طريق البدعة والضلالة والانحرافات المستحدثة فى دين الله عز وجل وفى ذلك يقول المصطفى عليه السلام : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ » النواجذ يعنى الأضراس »(١) .

---

(١) أخرجه ابو داود (٤ ج ٤٦٠٧) والترمذى (٥ ج٢٦٧٦) واحمد فى مسنده (٤/ ١٢٦/ ١٢٧) والنووى فى رياض الصالحين (ص ٧٦/ ج ١٦٠) باب المحافظة على السنة .

٥- التفقه فى الدين عن طريق التعلم لقوله :« إنما العلم بالتعلم » ولقوله ﷺ :« من يرد الله به خير يفقه فى الدين » وقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] وقد جاء فى الزهد لأحمد عن الاسود بن يزيد عن عبد الله قال : لو أن أهل العلم صانواعلمهم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم .

٦- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لأن الداعى إلى الله بدعوته يترقى إلى منزلة الولاية بإذن الله تعالى وهى واجبة على كل مسلم بشرط أن يتعلم ويعى ما يبلغه للناس، لقول النبى ﷺ : فى الحديث « نضر الله امرئ سمع مقالتى فواعاها ثم بلغها للناس فرب مبلغ أوعى من سامع » أو كما قال ﷺ ولقول الله تعالى :﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢].

الفصل الثالث

شروط الولاية

فى هذا الفصل أردت بفضل الله تعالى أن أضع النقاط على حروفها أتحدث ولا حرج عن شروط أعظم عطية وأغلى منة يمنها الله تعالى على عباده وهى منة الولاية التى ما من عبد رزقه الله هذه المنة الغالية والنعمة السامية إلاوقد أوتى الخير كل الخير، وليس على ظهر البسيطة كائن مَنْ كان أسعد منه مخلوقاً ولا أنعم منه نفساً ولا أفلح منه عاقبة إذ أنه بفضل مولاه عليه قد أُختْيرَ من بين جموع خلق الله تعالى لكى يحظى بهذا الشرف واصطفاه مولاه لينال هذه الدرجة وتلك النعمة التى سوف تحول حياته إلى نعيم، وتنجيه من نار الجحيم وتشرفه بقربه من رب العالمين ولكن هناك شروط لنيل ذلك المراد. وللولاية شرطان إثنان جليلان كريمان نفيسان من أداهما وقام بتحقيقهما وأحسنهما إبتغاء وجه ربه حُق له أن يحظى بنيله شرف الولاية فيصبح على إثرها ولياً لله من أوليائه الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وذلك اقتباساً من خلال النص القرآنى الكريم وهذان الشرطان هما:

١- الإيمان.

٢- التقوى والدليل على ذلك من الكتاب قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢،٦٣]. فقد قال ربنا قولاً فصلاً وحكم حكماً عدلاً مبيناً

لنا حقيقة من هو الولى الحقيقى وما هى شروط الولاية. فالولى هو الذى يقوم بشرطى الولاية وهما: الإيمان، والتقوى.

ثم بين لنا سبحانه ما لهذه المنة الغالية والدرجة العالية – درجة الولاية من الفضل والكرامة – فى أنه خير جزيل وعطاء كبير لصاحبها فى الدنيا والآخرة فقال سبحانه: ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [يونس: ٦٤]. صدقت يا مولانا ومن أصدق من الله قيلا. ذلك هو الفوز العظيم وأى فوز أعظم من هذا الفوز؟ وأى بشرى أعظم وأغلى من هذه البشرى؟ فطوبى لأولياء الله، طوبى لرجال الله، طوبى لخواص الله، طوبى للمشتاقين إلى الله، طوبى لأحباب الله، طوبى للمبلغين فى الأرض عن الله، ويبلغ الله عنهم فى السماء، طوبى لهم وحسن مآب. وقد رَغَّبَ المولى سبحانه عباده فى الجمع بين الإيمان والتقوى وبين لهم سبحانه بأن الجامع لهما في قلبه أجره عند الله عظيم فقال سبحانه: ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الشرط الأول: الإيمان

أولا: معنى الإيمان

إن معنى كلمة إيمان فى مصطلحها اللغوى تعنى التصديق. فقوله سبحانه: ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾. أى يصدقون به، وقوله: فى سورة يوسف عن إخوة يوسف: ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾ أى وما أنت بمصدق لنا.

والمدلول الشرعى لها أنها كلمة تدور فى محورين أساسين لا وجود

لواحدٍ دون الآخر وهما التصديق والعمل. والتصديق والعمل هما شرطى الإيمان اللذان يحققان الإيمان فبفقدان إحداهما يفتقد الآخر فلابد من الجمع بين التصديق فى القلب ويوافق ذلك العمل لما صدقه وإلا أين التصديق بدون العمل؟ وأين العمل بدون التصديق؟ وأين تحقيقه؟ فهما كالماء والهواء وكالروح والجسد من العبد فبضياع واحدة يضيع الآخر ويفتقد الإيمان اسمًا وجوهرًا، فلا غنى لكل موحد آمن ورضى بالله ربًا عن الإثنين أحدهما أو كلاهما، ومحمدًا نبياً ورسولاً وبالإسلام ديناً والتصديق يكون بالأصل (أصل التوحيد) وهو الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله والعمل بمقتضاها. وللإيمان شعب كثيرة أحصاها لنا رسول الله ﷺ فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»(١) والبضع من الثلاثة إلى التسعة، والشعبة القطعة.

ثانياً: فضل الإيمان

فالإيمان نعمة غالية ومنة عظيمة لاحياة للقلوب بدونها لأنها مادة الخشوع والخضوع لله رب العالمين، فمن أُعطى نعمة الإيمان فقد أُعطى الخير كله والفضل كله وصار منعماً فى حياته برزقه هذه النعمة وتلك المنة وفاز بها فوزاً عظيماً.

---

(١) أخرجه البخارى (١ / ح٩) بلفظ الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء من الإيمان ومسلم (١ص ٦٣ / ح ٥٨) والنووى رياض الصالحين (ص ٦٤ ح ١٨٧).

ومن حرم نعمة الإيمان فإنه والله لمحروم، وإنه لمبتور وإنه لمفقود إذ أن غيره من المؤمنين المتنعمين بها فى النعيم الخالد والسرور الدائم بحالهم مع الله، وهو فى الشقاء والضنك والتعب والنقص.

وإن للإيمان فضائل جمة يضيق المقام بذكرها وسردها ، وما أحلى وأغلى وأمتع أن نعيش فى ظلال بعض هذه الفضائل عبر هذا الفصل المبارك فنذكر منه البعض اليسير الذى ييسره الله جلَّ وعلا لنا فى هذا المقام.

أولاً فى الدنيا:

١- السعادة وراحة البال

فإن أسعد الناس على وجه الأرض وأهداهم بالاً وأطيبهم نفساً وأفضلهم سيرة وصورة وسريرة هم أهل الأيمان، وذلك لأن الإيمان سر ربانى يهبه الله من يشاء لمن يريد لمن يحب ويصطفى من عباده، و روى أن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - كانت دائمًا تكثر من حمد الله وشكره على ما أنعم عليها من السعادة فسئلت ذات مرة: كيف تجدينك؟ فقالت: فى أتم السعادة لأن سعادتى فى إيمانى، وإيمانى فى قلبى، وقلبى لا سلطان لأحد عليه إلاالله(١).

٣ - الشرف. ٤ - العزة. ٥- الهيبة. ٦ - الوقار.

فإن المؤمن شريفٌ عند الله بما يقوم به لله جل وعلا من أعمال الإيمان

(١) نقلته من كتيب دعوة إلى السعادة د/ كامل البوهى ص ١٣.

كريمٌ بذلك. فيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد جاء في الحديث في وصية جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ أنه قال: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واحبب من شئت فإنك مفارقه، اعلم أن شرف المؤمن قيام الله وعزه استغنائه عن الناس»(١).

فقيام الليل من جملة أعمال الإيمان المحببة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وهي شرف المؤمن ويكون شريفاً أيضاً عند الناس، فالكل يحبه ويألفه ويتحبب إليه ويتشوق إليه ويسعد بلقائه و معرفته. وذلك كله ببركة حب الله له، وإيمانه به سبحانه.

ويصير المؤمن عزيزاً باستغنائه عن الناس، وخضوعه وذله لرب الناس سبحانه. فالمؤمن عزيز عند الله وعند الناس بفضل أعمال الإيمان الكريمة، ودليل ذلك من القرآن قول الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٧- تثبيت الله للمؤمنين في الدنيا من التحول عن الإيمان والانحراف للفتنة فيكون المؤمن محفوظاً لقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) جاء في فقه السنة للسيد سابق (ص ١٧٦ / ح٣) عن سهل بن سعد جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به واحبب من شئت فإنك مفارقة اعلم ان شرف المؤمن قيام الليل وعزه إستغناءه عن الناس».

ثانياً: فى الآخرة

١- تشبيت الله لهم من فتنة الممات، وهى كما أخبر أهل العلم نقلاً عن النبى ﷺ، أنهما شيطانان يأتيان للإنسان عند موته و احد عن يمينه والآخر عن شماله، فأما الذى على يمينه فعلى صورة أمه والذى عن شماله فعلى صورة أبيه فيقولان له: مت يهودياً، مت نصرانياً. فإن كان من أولياء الله ومن أهل طاعته أخزى شيطانه بثباته على التوحيد. وهذه المصيبة هى أشد فتنة تعرض على الميت لأنه لو وقع فيهاوافتتن خسر الدنيا والآخرة، وقد ذكر السيوطى فى دقائق الأخبار. أن الميت فى النزع أشد حال يكون فيها العطش وإحراق الكبد ففى ذلك الوقت يجيئ الشيطان عند رأسه معه قدح ماء من الجمر فيحرك القدح له فيقول المؤمن: أعطنى من الماء ولا يدرى أنه شيطان فيقول له قل: لا صانع للعالم حتى أعطيك فإن كان على السعادة لم يجبه، ثم يجيئ الشيطان إلى موضع قدميه ويحرك القدح له فيقول المؤمن: أعطنى من الماء فيقول قل: كذب الرسول عليه السلام حتى أعطيك منه فمن أدركته الشقاوة يجيبه إلى ذلك. لأنه لا يصبر على العطش فيخرج من الدنيا كافراً نعوذ بالله من ذلك. لأنه لا يصبر على العطش. أما من أدركته السعادة فيثبته الله تعالى ويصبر حتى يلقى الله مؤمناً. وقد سُئِل أبو حنيفة: أى ذنب أخوف لسلب الإيمان؟ فقال: من ترك الشكر على الإيمان، وترك الخوف من سوء الخاتمة وظلم العباد. فإن من كان فى قلبه هذه الخصال الثلاث فالأغلب أنه يخرج من الدنيا كافراً إلا من أدركته السعادة.

٢- تثبيت الله لهم فى القبر عند سؤال منكر ونكير.. فيثبته ربه ولا يهاب موقفهما ولكن يعلم أنهما خلق من خلق الله مثله وموكلون ومكلفون بهذا العمل للسؤال ولا سلطان لهما عليه من دون الله تعالى فيرزقه الله أن يقول: ربى الله، والإسلام دينى، ومحمد نبى الله ورسوله إليه فيفوز بالجنة.

٣- الأمن من فزع يوم القيامة وشدته وهوله وعرصاته لقول الله تعالى فى الحديث القدسى: «فإن خافنى فى الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة».

٤- وعود الله لهم فى الجنة.. فإن أهل الإيمان لهم موعودات ثلاثة وعدها الله إياهم فى الدنيا أن يثيبهم بها فى الجنة وهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [التوبة: ٧٢].

١- جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها.

٢- ومساكن طيبة فى جنات عدن.

٣- ورضوان من الله أكبر ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٥- لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.. بدليل قول الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه عن عبدالله بن عباس -رضى الله عنهما- قال: «حدثنى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبى ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد فقال رسول الله ﷺ: كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: لابن الخطاب اذهب فناد فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. قال: فخرجت فناديت

فى الناس. ألاإنه لا يدخل الجنة إلا ا لمنؤمنون »(١).

ثالثا: طريقة الحصول على حلاوة الإيمان

قد يتساءل البعض فيقول: إذاكانت نعمة الإيمان بهذا القدر من العظمة، وهذا القدر من الكرامة ولها هذا القدر من الحلاوة وهذا القدر من الفضل وسبباً للفوز العظيم يوم الدين. فكيف للإنسان أن يحصل على هذه النعمة ويتلذذ بهذه الحلاوة؟ ونترك إجابة هذا السؤال الكريم لنبينا محمد ﷺ فهو قد أجاب لنا عن هذا السؤال قديماً. فعن أنس -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »(٢).

فهؤلاء خصال ثلاث للحصول على حلاوة الإيمان من كن فيه فهو يتلذذ بها ويحيا بها ونريد أن نتعرف فى هذا المقام على معنى كلمة حلاوة الإيمان.

قال العلماء - رحمهم الله - ومعنى حلاوة الإيمان أى استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات فى رضى الله تعالى ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عَرَضِ الدنيا. فيجب على المشمر للحصول على حلاوة الإيمان أن يحصل بهؤلاء الخصال الثلاث هو أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما

---

(١) أخرجه مسلم وذكره القرطبى فى التذكرة والنووى فى رياض الصالحين.

(٢) أخرجه البخارى (١ح ٢١ فى الفتح) ومسلم (اح ٦٧) والنووى فى رياض الصالحين (ص ١٤٥ ح ٣٨٠).

سواهما بمعنى أن يحيا فى جنة الحب الخالدة الدائمة وهى جنة محبة الله ورسوله حب عن كل ما سواهما من متعلقات الدنيا ومحبوباتها وعلى حب النفس ذاتها فإن علائق الدنيا كلها ومحبوباتها مقطوعة ونافدة لا محالة ولله در القائل: -

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك مفنيناومفنيها

واعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

ولكن حب الله ورسوله لا يفنى ولا يبيد إنما عمره طويل ومديد باق وخالد لا يقطعه شيء أبداً كائن من كان ولا الموت نفسه لأن الموت لا يستطيع أن يهدم أو يقطع محل معرفة الله تعالى وحبه ومعرفته وحب رسوله ﷺ والمحبة على ضروب وأنواع.

فقد جاء فى مختار الإمام مسلم وشرح النووى من كلام الخطابى قال ابن بطال والقاضى عياض: - رحمهم الله - جميعاً ورحمنا معهم. المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس فجمع ﷺ أصناف المحبة فى محبته فى هذا الحديث(١).

ثانياً: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله أى يكون محبته خالصة نقية من كل شوب يشوبها أو ما قد يشوبها من المتعلقات المادية فتكون المحبة للأخ لأنه

---

(١) راجع مختار مسلم وشرح النووى.

قائم على طاعة مولاه لا ينتظر من الناس جزاء ولا شكوراً ولأنه يخاف من ربه يوماً عبوساً قمطريراً كان شره مستطيراً فالذى يخاف من هذا اليوم ومن ملك هذا اليوم يكون كريماً طيباً مؤمناً فوجبت لذلك محبته لأنه أعلن لمولاه بخوفه وإيمانه به وحبه، وحبيب الحبيب حبيب وعن ذلك يحدثنا رسول الله ﷺ عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

ثالثاً: أن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه. أى يكره ان يعود فى عناده وشركه وريائه وتكبره وتجبره وزوره وتجرئه على الله فى عباده ونحوه كما يكره أن يقذف فى النار.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»(٢) فمن خلال هذه الأحاديث النبوية الشريفة يتبين لنا أن الطريق الصحيح الموصل لحصول حلاوة الإيمان سبعة أشياء.

١- كمال محبة الله ورسوله وإيثارها على كل المحبوبات.

٢- محبة الإخوان فى الله.

---

(١) أخرجه البخارى (١/ح١٣/فى الفتح) من حديث أنس ومسلم فى الإيمان (٦٧/ح ١٧).

(٢) أخرجه البخارى (١٠/ح٦٠١٩ فى الفتح). ومسلم واللفظ والنووى فى رياض الصالحين (ص١٢٤/ح ٣١٤) عن أبى شريح الخزامى رضى الله عنه عن النبى ﷺ.

٣- كراهية العودة فى الكفر والعصيان والفجور والضلال كما يكره العبد أن يقذف فى النار.

٤- أن يحب الإنسان المسلم لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه ويعد ذلك شرطاً.

٥- ألا يتكلم العبد إلا بالخير والكلام الطيب وإلا فالصمت والسكوت أفضل.

٦- إكرام الجار وعدم إيذائه سواء كان مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً أو كافراً.

وهؤلاء السبعة أنفع الطرق للتحصل على حلاوة الإيمان والله الموفق لذلك وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

الشرط الثانى « التقوى ».

تعرفنا بفضل الله تعالى فى الشرط الأول من شروط الولاية مدى عظمة وفضل الإيمان ودرجته العالية وفضائله الغالية وفى هذا الشرط الثانى « التقوى » نقول والله الموفق: إن التقوى هى منة من الله عظيمة ونعمة غالية وكريمة ودرجتها وفضلها أعلى من درجة وفضل الإيمان، إذ أن درجة التقوى لا تأتى فى العبد خالصة بالحقيقة إلا بعد تحقيق درجة الإيمان السالف ذكرها، فإن لم يكن القلب موفوراً بالإيمان لم ينته لصاحبه أن يتحصل على درجة التقوى، وقد بين لنا المولى سبحانه قيمة وفضل درجة التقوى ومنزلتها التى تعلو وتفضل درجة الإيمان، فلو نظرنا إلى الآية السالف ذكرها فى أولياء الله نجد أن الله عز وجل قال فيها: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣]. فقدم الإيمان على التقوى أى بدأ بالتدريج إلى العلو والرقى فى المنزلة، فالإيمان الأول ثم التقوى ثانياً ثم ما بعد ذلك

فإن لم يتحقق الإيمان لم تتحقق التقوى، ونظراً لما للتقوى من الكرامة، والفضيلة عند الله والمنزلة، العالية، فإن الله تعالى أوصى فى كتابه المؤمنين من عباده بها والتمثل بها حتى تصل بهم هذه الدرجة إلى منزلة الأولياء المقربين إلى الله سبحانه فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨]. وقوله سبحانه لعباده المؤمنين ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠] ففى كل هذه الآيات الكريمات الإشارة من الله لعباده بالوصية يوصى فيها سبحانه عباده المؤمنين بالتقوى وذلك كثير فى مختلف الآيات فى بعض السور وذلك يبين ويؤكد لنا أن درجة التقوى منزلة عالية ودرجة سامية وخصوصية جداً لعباد هم كما قال الله فى وصفهم: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فكلمة «من» تفيد التبعيض فهى للتبعيض أى جزء قليل وعدد يسير من جملة هؤلاء المؤمنين هم الرجال والذى سماهم رجال هو رب وخالق كل الرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهى درجة التقوى إذاً فمن منطلق هذه الآية الكريمة نعلم بإذن الله أن درجة التقوى تعنى أن العبد يصدق الله تعالى على ما عاهده عليه لأنه يصير عنده نذراً فيخاف أن ينقضه وهذه الآية الكريمة نزلت فى أبطال الإسلام الأوائل الذين صدقوا حقاً مع الله فنذروا له أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا

حتى يستشهدوا ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أى فمنهم من وفى نذره وعرضه حتى استشهد فى سبيل الله - كأنس بن النضر، وحمزة رضوان الله عليهما - ﴿ومنهم من ينتظر﴾ أى منهم من ينتظر الشهادة فى سبيل الله ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ أى ما غيروا عهدهم الذى عاهدوا عليه ربهم أبداً(١) والصدق مع الله وإبقاء عهده وقضاء نذره، والخوف من نقض عهده من تقوى القلوب ولو أننا بحثنا فى كتاب الله وتفكرنا فى آيات الوصية بالتقوى من قِبَله سبحانه إلى عباده نجد أن الله تعالى أوصى عباده بالتقوى على وجهين: وجه الخصوص، وعلى وجه العموم. أما الذى على وجه الخصوص فقد خص فى وصاياه بالتقوى فى الغالب المؤمنين كمثل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والذى على وجه العموم كمثل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]. وذلك يفيد بأن الله جل وعلا قد خص المؤمنين عن عامة الناس بذكرهم في وصاياه بالتقوى لما لهم عند الله من الفضل والكرامة والإيمان وأعلى من ذلك كله وأجمله وأحلاه وأكمله وأبقاه وأتمه إذا أكملوا إيمانهم هذا بالتقوى.

وقد أوصى الحق سبحانه وتعالى عباده بأن يجعلوا التقوى لهم زاداً إلى الآخرة وبين أن أفضل أنواع الزاد وخيرها زاد التقوى فمن جعل التقوى زاده فهو الرجل العاقل الفطن الكَيِّس الناجى من عذابه الفائز بجنته إن شاء

---

(١) راجع صفوة التفاسير للصابونى ج ١٢ ص ٥٦ تفسير الأحزاب.

الله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فحقاً وصدقاً كما أخبر المولى سبحانه أن أهل التقوى هم أولى الألباب أى هم أولو العقول والأفهام الصحيحه السليمة. فاعقل الناس هم التقاة وخير الناس هم التقاة وأفضل الناس هم التقاة وأكرم الناس هم التقاة وأفطن الناس هم التقاة وأكيس الناس هم التقاة وأفلح الناس هم التقاة وأحب الناس إلى الله هم التقاة وأقرب الناس إلى الله هم التقاة وأثبت الناس على إيمانهم هم التقاة، والشياطين أبعد ما تكون من التقاة والملائكة أقرب ما تكون من التقاة لماذا؟ لأنهم نظروا إلى هذه الدنيا بعين الحقيقة والتدبر نظروا إلى الآخرة بعين البصيرة والإقبال. فعلموا أن الدنيا دار نفاد لا محل إخلاد ومركب عبور لا منزل خلود وعلموا أنها نافدة وبائدة أكَّالَة غَوَّالة بَدَّالة نَقَّالة. غَرَّارة ضَرَّارة خَوَّانة غَدَّارة لاتدوم خيراتها ولا تأمن فجعتها وعلموااأن الآخرة دار نعيم ودار خلود وسرور وعلموا أنها هى الباقية السرمدية وأن الدنيا فانية دنية فآثروا الباقى على الفانى وباعوا الرخيص بالغالى واشتروا من الله الجنة وما فيها من نعيم مقيم فهل هناك أعقل من هؤلاء الرجال ولله در القائل..

تزود من التقوى فإنك لا تدرى إذا جن

عليك ليل هل تعيش إلى الفجر

ولكن للأسف زعم بعض العصاة والمخالفين من المتقدمين والمتاخرين من الفلاسفة والعباقرة والمخترعين وغيرهم أنهم هم أعقل الناس وهم وحدهم أصحاب العقول وهم أولى الألباب، ونحن نقول لهم أن العقل وكماله ليس فى الاختراع والابتكار والوصول إلى درجة معينة فى علم فرعى من

علوم البيئة ولكن فى تقوى الله والخوف من عذابه والاستعداد إلى لقائه وغير ذلك، فكيف يكون عاقلاً من تسبب لنفسه بغفلته عن الله أن أوقع بها إلى العذاب الأليم كيف يكون عاقلاً من خسر الآخرة ونعيمها السرمدى، كيف يكون عاقلاً من اشترى الرخيص بالغالى وآثر الفانى بالباقى ثم أى عقل هذا الذى أدى بصاحبه إلى الحسرة والندامة والخزى أمام الله.

أى عقل هذا الذى أدى بصاحبه إلى العذاب الأليم فى نار الجحيم. اللهم لا فإن العاقل الحقيقى هو التقى المتذكر فى خلق السموات والأرض والنجوم والسحاب والقمر والكواكب والأحياء والأموات والطبيعة والبيئة والحيوانات البرية ومعيشتها والنبات وتكوينه والإنسان وحياته كل شىء وكل نوع له ظروف حياتية خاصة لابد لها من خالق ومنظم فمن هو ذلك الخالق؟ واليس هو الله رب العالمين وحده؟ بلى لذلك قال الله: ﴿ **إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة ١٦٤] ويقول النبى ﷺ : « الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »(١).

من فضل وكرامات التقوى

إن للتقوى من الفضائل العظيمة والكرامات الجسيمة ما لو عرفه واطلع

---

(١) أخرجه الترمذى وأحمد فى مسنده وابن ماجه وأخرج الحاكم وصححه على شرط البخارى.

عليه الثقلان. الإنس والجن على حق قدره لهانت عليهم الدنيا وما فيها من شهواتها وملذاتها، ولشمروا لنيل هذه الفضائل وتلك الكرامات وصبروا لذلك مهما كانت الأسباب والعقبات ولآثروها على كل ما سواها من الفضائل، ونحن إن شاء الله نعد من هذه الفضائل والكرامات في هذا الفصل على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ثلاثة وعشرون فضلاً.

١- معية الله ونصرته لأهل التقوى لقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٢- سبباً للحكمة ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٣،٤- سبباً لتكفير الذنوب ومغرتها وتعظيم الأجر عند الله وذلك لعظمة درجتها ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق :٥].

٥- سبب للتوفيق في تحصيل العلم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

٦- سبباً للمغفرة ﴿ واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾.

٧- سبباً للسهولة واليسر في كل الأمور ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

٨- سبباً للخروج من الهم و الغم والضيق والمحن والكروب ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢].

٩- سبباً لجلب الرزق والسعة فيه ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢].

١٠ – سبباً للنجاة من عذاب الله فى الآخرة ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢].

١١– سبباً لنيل فضيلة درجة الصدق مع الله وشهادة الله لهم بذلك ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

١٢ – سبباً لوصول العبد إلى درجة الكرامة على جميع الخلق ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

١٣ – سببا لمحبة الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

١٤ – سبباً للفلاح ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

١٥– سبباً لنيل الجزاء والخير وحفظ الله لهذا الأجر والخير والوصول إلى درجة الإحسان ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

١٦– سبباً لقبول أعمال البر والإنفاق ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

١٧– سبباً للفوز العظيم يوم الدين ﴿وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾.

١٨– سبباً لصفاء القلوب وطهارتها ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾.

١٩ – سبباً للعلو فوق كل الخلائق فى الدرجة ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾.

٢٠ – سبباً للقرب من الحضرة الربانية ﴿إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.

٢١- سبباً لصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ .

٢٢- سبباً لتقريب الجنة لهم يوم القيامة ولا يُكلفون المشى اليها لفضلهم على الله سبحانه ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ .

٢٣- سبباً لمعية الله لهم ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

ثانياً: طريقة الحصول على درجة التقوى

ما أطيب الحديث وأحلاه عن معرفة الطرق الخيرة لاقتباس الفضائل النيرة وتحصيلها . وإن فضيلة التقوى من أعلى أنواع الفضائل كما بيناه آنفاً وهى درجة أعلى من درجة الإيمان فهى درجة الخواص إلى الله وهى درجة أهل طاعته وخشيته وأهل قرآنه وهم العلماء والزهاد، يبقى لنا أن نسأل كيف وبماذا يتحصل الإنسان على درجة التقوى العظيمة؟ والإجابة تقول أن هناك أربع خصال لتصحيل درجة التقوى، فلو أن العبد قام بهن وحققهن نالها، ووصل سريعاً بإذن الله إليها .

أربع خصال هن السر الموصل إلى درجة التقوى . والتقوى حصيلتهن، ألا وهن الخوف من الله، والعمل بكتاب الله، والرضا بقضائه، والاستعداد للقائه، وهذا ما ذكره الإمام على بن أبى طالب، كرم الله وجهه ورضى الله عنه عندما سئل عن التقوى فقال التقوى هى : -

الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل ، و الاستعداد ليوم الرحيل.

١ – الخوف من الجليل:

وصفة الخوف هذه صفة الرجال وإن لفضل الخوف من الله ما يضيق المقام عن ذكره وسرده وإن هذه الفضيلة تعين العبد لا محالة على إدراك السعادة فى الدنيا وفى الآخرة فيكون العبد سعيداً فى دنياه بلذة الخوف من الله التى يجدها فى قلبه لا يخشى غيره واستشعاره دائماً لعظمة ربه سبحانه و معيته واطلاعه عليه فى السر والعلن فتزداد المحبة والشوق إلى هذا الإله الخالق العظيم، ويكون سعيداً فى الآخرة بإذن الله تعالى بالفوز العظيم والآمن من عذابه سبحانه، ودخوله الجنة لأن الله سبحانه هو الذى قال لنا ذلك: ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ [النساء: ١٢٢].

فقد قال سبحانه فى الحديث القدسى: « وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافنى فى الدنيا أَمَّنْتَهُ يوم القيامة »(١).

والخوف على أنواع ومقامات وكلٌ حسب نوعه

جاء فى مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة وفى الإحياء لأبى حامد فى بيان أقسام الخوف ما مختصره « اعلم أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة ورواه ابن فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية.

عليه خوف سوء الخاتمة[1]، وهى أعلى وأفضل أقسام الخوف - خوف سوء الخاتمة - انتهى».

فضل الخوف من الجليل سبحانه :-

الخوف من الجليل سفينة النجاة للغرقى من لُجَّة الدنيا ولله در القائل:

إن لله عبـــاداً فطنـــا
طلقـوا الدنيـا وخـافـوا الفـتنا
نظروا فـيـهـا فلمـا عـرفـوا
أنـهـا ليـسـت لحى وطـنـا
جـعـلوها لجـة واتـخـذوا
صـالح الأعـمـال فـيـهـا سـفنا

ونذكر من فضلها ما جاء فى الكتاب والسنة المطهرين فقد قال الحق سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ليست جنة واحدة ولكن جنتان وذلك لِمَا لفضيلة الخوف عند الله من الكرامة وقال سبحانه: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾. وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ قال: «لن يغضب الله على من كان فيه مخافة»[2] وقال ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[3] رواه الطبرانى والبيهقى.

ومن فضلها وفضل البكاء من خشية الله جل وعلا ما ذكره ابن عباس

---

(١) راجع مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المعدالى ص ٣١٦ فى بيان أقسام الخوف.

(٢) ذكرة ابن قدامة فى كتابه السابق ذكره ص ٣١٧.

(٣) رواه الطبرانى والبيهقى من حديث عباس بن ضيف.

عن النبى ﷺ أنه قال: «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله».

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَلِجُ النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع. ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم»(١) رواه الترمذى.

وفضل الخوف من الله سبحانه أنه واجب على كل إنسان. وأن يكون دائماً على خوف وَوَجَل من الله سبحانه فيراقبه فى سره وفى علنه وفعله وقوله ويخشى أن يطلع عليه فيراه على معصية فإن الملائكة تخاف الله وهم الذين خلقوا لطاعته ولم يفكروا فى معصيته قال سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ قال: «إن لله ملائكة ترتعد فرائصهم من مخافة الله»(٢). وعن جابر رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بى رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالى من خشية الله تعالى»(٣).

وجاء فى مختصر مناهج القاصدين عن يزيد الرقاشى قال: «إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة. يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى فيقول لهم الرب عز وجل: يا ملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى؟ فيقولون: يارب لو أن أهل

---

(١) أخرجه الترمذى (٨/ ح ١٢٦٤ فى الفتح) (ومسلم فى الفضائل ح ١٣٤/ ١٨٣٢) النووى فى رياض الصالحين (ص /١٧/ ح٤٥٣).

(٢) راجع مختصر مناهج القاصدين ص ٣٢٢: ٣٤٨.

(٣) راجع مختصر مناهج القاصدين ص ٣٢٢: ٣٤٨.

لأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ما استساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا فى فرشهم ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر»(١).

وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخافون ربهم ويبكون من خشيته ويُحَذِّرون الناس من الغفلة عن خوف الله جل وعلا. فهذا نبينا محمد ﷺ يبكى عند سماعه القرآن من عبد الله بن مسعود. فقد ورد فى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىّ القرآن قلت يا رسول الله أأقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساءحتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان» متفق عليه(٢).

وعن أنس - رضى الله عنه - قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين» متفق عليه(٣).

---

(١) راجع مختصر مناهج القاصدين لابن قدامة ص ٣٢٨ وإحياء علوم الدين لأبى حامد فى باب الخوف.

(٢) أخرجه البخارى (٨ح ٤٥٨٢ فى الفتح) ومسلم(١/ ٥٥١/ ح ٢٤٧) والنووى فى رياض الصالحين (ص١٧٠/ ٤٥١)

(٣) أخرجه البخارى (٨/ ح٤٦٢١/ فى الفتح) ومسلم فى الفضائل (٤/ ١٨٣٢/ ح١٣٤) والنووى (ص٥٤/ ح٤٠٦).

وذكر أن آدم عليه السلام بكى على خطيئته أربعين عاماً وإبراهيم الخليل كان يقول لربه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧,٨٨,٨٩].

وداود بكى على خطيئته أربعين يوماً وهو ساجداً لم يرفع رأسه حتى نبت من دموع عينيه البقل فناداه ربه يا داود أمريض فتشفى؟ أم جائع فتطعم؟ فنحب نحيباً هاج كل ما نبت وقال بل رحمتك أرجو وفى ذلك قال فيه ربه: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]

وعيسى عليه السلام كان من شدة خوفه من الله يقطر جلده دماً.

وقد جاء فى الصحيحين البخارى ومسلم أن عائشة - رضى الله عنها - قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته، وإنما كان يبتسم وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك فى وجهه فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة فى وجهك فقال يا عائشه: ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾(١).

وكان أصحابه ﷺ أشد الناس خوفاً من الله جل وعلا خوفاً سهرهم ليلهم وصومهم نهارهم، فورد عن الإمام على أنه وصف حال هؤلاء الرجال. أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى أراكه يقول: صليت مع على - رضى الله عنه - صلاة الفجر فلما أن انفتل عن يمينه مكث كان عليه كآبة حتى

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم.

إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى لله ركعتين ثم قلب يده فقال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله تعالى يتراحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم والله لكان القوم باتوا غافلين»(١).

وكان التابعون من بعدهم يقتدون بهم فى خوفهم من الله جل وعلا فهذا على بن الحسين – رضى الله – عنه رُوِىَ أنه كان إذا توضأ اصفر وجهه وتغير فيقال له: مالك قد اصفر وجهك وتغير فى الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يد من أريد أن أقوم.

وكان عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – يبكى عامة الليل وكان إذا ذكر الموت انتفض وارتجف كانتفاض الطير وكان يبكى حتى تبل دموعه لحيته ودخل داره ليلة فبكى حتى أبكى أهل الدار فلما انكشفت عنهم العَبْرَةُ قالت فاطمة: بأبى أنت يا أمير المؤمنين لم بكيت؟ فقال: ذكرت منْصَرف الناس بين يدى الله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير ثم صرخ وغشى عليه»(٢)

٢– العمل بالتنزيل وهو القرآن الكريم

لأنه من خاف من الجليل سبحانه أدى به خوفه إلى العمل بكلامه.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى. (٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية.

وعدم هجره لأن التارك للقرآن فقد هجره، والذى لا يقرأه فقد هجره والذى يقرأه ولا يعمل به فقد هجره. فعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وإن القرآن أفضل أنواع الذكر وأفضل أنواع العبادة أخرج أبو نعيم عن أنس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل عبادة أمتى القرآن»(١).

وعن أبى أمامة -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(٢).

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الرب تبارك وتعالى: «من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»(٣) رواه الترمذى.

وروى ابن ماجة بإسناد حسن عن أبى ذر -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدوا فتتعلم باباً من العلم عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به خير لك من أن تصلى ألف ركعة»(٤) فانظر إلى عظمة أجر تعلم القرآن الكريم وآياته فتعلم الآية الواحدة خير من صلاة مائة ركعة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥٣/ح٢٥٢) وأحمد فى مسندة والبيهقى فى السنة والنووى (٣٢٣/ح٩٩).

(٣) رواه الترمذى.

(٤) أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن

وأخرج ابن حيان عن على -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «أُنزل القرآن الكريم على عشرة: بشيراً، ونذيراً، وناسخاً، ومنسوخاً، ومحكماً، ومتشابهاً، وعظة، ومثلاً، وحلالاً، وحراماً. فمن أبشر ببشره وانتذر بنذيره وعمل بناسخه وآمن بمنسوخه واقتصر على محكمه ورد علم متشابهه إلى عالمه واتعظ بعظته واعتبر بمثله وأحل حلاله وحرم حرامه فأولئك هم المؤمنون حقاً لهم الدرجات العلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وهو وارثى ووارث الأنبياء من قبلى، ولولا أنه قيل أنه لا نبى بعدى لكان نبياً من أنبياء الله تعالى ولا يزال فى ضمان الله تعالى، وحيثما تلا القرآن غشيته الرحمة وتنزلت عليه السكينة وكان بعين الله منوراً له قلبه إلى يوم القيامة ويحشر يوم القيامة فى زمرتى وتحت لوائى، ولوائى - أبيض العود، أخضر الرقعة، أفيح الريح، له لسانان، لسان يرى بالمشرق ولسان يرى بالمغرب - يظل حملة القرآن والمتحابين فى الله. ومن ضيع واحدة منهن فقد ضيع كلهن ويلقى الله غداً ظمآن محول القلب نادم القلب مرتعد الفؤاد حاسر القدم مستجيباً من الرب مغفوراً له أو معذباً» أخرجه ابن حيان(١).

فهذا الحديث الشريف قد وضح لنا الطريق وبين لنا فيه الحبيب محمد ﷺ فضل القرآن والعامل به كيف يكون حاله فى الدنيا وحاله فى الآخرة ففى الدنيا قال عنه المصطفى لولا أنه قيل لا نبى بعدى لكان نبياً من أنبياء الله. وذلك قمة التشريف والعطاء فى الدنيا وهو وارث النبى وكل الأنبياء وقد شهد له المصطفى فى هذا الحديث بالإيمان الحقيقى الكامل وهو فى

---

(١) أخرجه ابن حيان

ضمان الله أى فى حفاظته وحصنه وهو كلما تلا القرآن وغشيته الرحمة رحمه الله تعالى وتنزلت عليه السكينة وكان بعين الله أى بحفاظه الله له منوراً له قلبه أى يرى الحق حقاً ويتبعه والباطل باطل فيجتنبه وذلك هو نور القلوب وفى الآخرة يحشر فى زمرة النبى ﷺ وتحت لوائه ويظله فهنيئاً ثم هنيئاً لأهل القرآن أولئك هم عباد الله وأوليائه الصالحين، وعطية القرآن للعبد هى أكبر عطية وأفضل منة لا تساويها كل العطايا والمنن.

فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ :« من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله تعالى »(١) وانظر إلى شفاعة القرآن وماذا يصنع مع صاحبه يوم القيامة وسط العرصات والنكبات والأهوال؟ فعن بشير بن المهاجر قال: حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة عن النبى ﷺ أنه قال:« إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حيث ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول هل تعرفنى فيقول ما أعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذى اظمأك فى الهواجر وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنى لك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمنه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والديه حلتين تقوم لهما الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: أقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود ما كان يقرأ هذا كان أو ترتيلاً »(٢)

---

(١) رواه الطبرانى.

(٢) أخرجه أحمد والدرامى من حديث أبو نعيم ورجاله ثقات.

٣- الرضى بالقليل

والرضى درجته عالية وفضله عظيم وأجره عند الله كريم حيث إن الراضى أعلى درجة من الزاهد ويسمى ايضاً قانع والقناعة كنزل لا يفنى كما قيل فى المثل، والراضى بالقليل لا يسمى فقيراً بل هو غنى برضاه، وذلك لأن الفقر هو الاحتياج للشيء فيصير فقيراً إليه، لذا نقول فلان الفقير إلى عفو ربه بمعنى المحتاج إلى عفو ربه والفقير إلى الله المحتاج إلى الله والفقير إلى المال هو المحتاج إلى المال فإن المحتاج إلى الشيء إن لم يرض به وشعر أنه لا زال محتاج إليه وإن أعطاه فهو يسمى فقير أما الراضى فلا يطلق عليه هذا الاسم لانه قد رضى وقنع بما آتاه الله فصار فى غنى عن الكثرة ومطلبها وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: (اللهم اجعل رزق محمد قوتاً).

٤- الاستعداد ليوم الرحيل

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]

فهذه الآية الكريمة وصية من الله لنا جميعا يجب أن نجعلها نصب أعيننا دائماً فإنها تبين لنا كيف يكون الإستعداد ليوم الرحيل.

والاستعداد ليوم الرحيل هو صفة الرجال العقلاء الأكياس أولى الالباب قال ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(١)

(١) أخرجه الترمذى وأحمد وابن ماجه.

وسئل الحسن البصرى ما سر زهدك فى الدنيا؟ فقال: اطمأن قلبى بأربعة أشياء: علمت أن عملى لن يقوم به غيرى فاشتغلت به وحدى، علمت أن رزقى لن يأخذه غيرى فاطمأن قلبى، علمت أن الموت يطلبنى فأنا أستعد له فى كل لحظة، علمت أن الله مطلع علىّ فاستحيت منه أن يرانى على معصية، ولن يكون فى العبد الاستعداد ليوم الرحيل بالحقيقة إلا بكثرة ذكر الموت قال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكْرِمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل فى العبادة. فتذكر يا مغرور فى الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته فياللموت من وعد ما أصدقه ومن حاكم ما أعد له كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ومفرقاً للجماعات وهادماً للذات وقاطعاً للأمنيات فهل تذكرت يا بن آدم فى يوم مصرعك وانتقالك من موضعك وإذا نقلت من سعةٍ إلى ضيق وخانك الصاحب والرفيق وهجرك الآخ والصديق وإذا نقلت من فراشك وغطاءك إلى عرر وغضوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر. فيا جامع المال والمجتهد فى البنيان ليس لك. والله ما المال إلا الأكفان بل هى للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب. ذكرة السيوطى فى دقائق الاخبار.

وفى الخبر: إذا فارقت الروح البدن نودى من السماء بثلاث صيحات يا ابن آدم أتركت الدنيا؟ أم الدنيا تركتك؟ اجمعت الدنيا؟ أم الدنيا جمعتك؟ أقتلت الدنيا؟ أم الدنيا قتلتك؟ وإذا وضع على المغتسل نودى بثلاث صيحات يا ابن ادم تذهب إلى سفر بعيد بغير زاد وتخرج من

منزلك فلا ترجع وتركب فرساً لا تركب مثله أبداً وتصير إلى بيت ما أهوله وإذا حمل على الجنازة نودى ثلاث صيحات. يا ابن آدم: طوبى لك إن كنت تائباً، طوبى لك إن كان عملك خيراً، وطوبى لك إن كان صحبك رضوان الله، وويل لك إن صحبك سخط الله.

وإذا وضع للصلاة نودى بثلاث صيحات يا ابن آدم: كل عمل عملته تراه الساعة إن كان عملك خيراً تراه خيراً، وإن كان عملك شراً تراه شرا.

وإذا وضعت الجنازة على شفيرا لقبر نودى بثلاث صيحات: يا ابن آدم ما تزودت فى العمران لهذا الخراب وما عملت فى الغنى لهذا الفقر وما حملت من النور لهذه الظلمة فإذا وضع فى اللحد نودى بثلاث صيحات: يا ابن آدم كنت على ظهرى ضاحكاً وصرت فى بطنى باكياً وكنت على ظهرى فرحاً وصرت فى بطنى حزيناً وكنت على ظهرى ناطقاً فصرت فى بطنى ساكتاً وإذا أدبر الناس عنه يقول تعالى: عبدى بقيت فريداً وحيداً وتركوك فى ظلمة القبر وقد عصيتنى لأجلهم، وللزوجة والولد وأنا أرحمك اليوم رحمة يتعجب منها الخلائق. وأنا أشفق عليك من الوالدة بولدها..

وقال ﷺ: أكثروا ذكر هادم اللذات (يعنى الموت) وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

الفصل الرابع

أسرار الولاية واكتساب درجة الصفاء (صفاء الود)

لكل شيء عظيم القدر جليل الخطر أسرار لعظمته وجلالته والولاية أعظم ما يؤتى العبد من بعد نعمة الإسلام وذلك أن الإسلام لكل الناس والولاية لخواص الناس ونحن فى هذا الفصل بإذن الله تعالى نضع النقاط على حروفها ونقوم بفتح النار والكشف عن أسرار من أعلى وأسمى وأعظم الأسرار التى وضعها الملك الغفار فى أناس أطهار وعباد أبرار من صفوة خلقه بدار الفرار تؤهلهم إلى عبر العقبات الضرار والفوز بالجنة فى دار القرار، فحمداً لله الواحد القهار خالق الخلق ومقدر لهم الأقدار وحاصيهم وضارب لهم الآجال على ما وفقنى إليه تعظيماً وإجلالاً فى كشف أسرار هى عُدَّة الرجال وعتادهم بدار الاختبار وحالهم وصفاتهم ليلاً ونهاراً وصلابة عزمهم سراً وجهراً وقوة إيمان تثير الانبهار وعلم وخشية خيبت عنهم الشيطان واحتار فطوبى لهؤلاء الرجال الذين مدحهم فى كتابه ذو الجلال فقال: ﴿من المؤمنين رجال﴾. طوبى لمن فطنوا أن الدنيا دار ارتحال وفناء واضمحلال ولجة. غرق فى البعد والضلال فتعلقوا بحبال الانتشال وودعوا الضيع والأهوال وصاروا بعاقبة حسن مآل أهل سعادة واستهلال فإن عباد الله الذين هم أولياءه وخاصته والذين هذا حالهم وتلك حقائقهم قد أكرموا من الله وسُعدوا بخصوصية الله لهم دون خلقه فَمَّن الله على كل واحد منهم بثلاثة أسرار بل ثلاثة أنوار ألا

وهم: سر الروحانية، والملكية، والربانية.

أولاً: سر الروحانية

وكلمة روحانية نسبة إلى الروح، والروح والجسم فى الإنسان هما مادتى حياته فى دار الدنيا ولكل منهما غذاء يختلف عن الآخر فغذاء الجسم بالأطعمة المادية، المأكل والمشرب. وقد نهى الإنسان عن الإسراف فى ذلك. فيقول الحق سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الاعراف: ٣١] ولهذا النوع المادى - أى الجسم - متطلبات وهى أنواع: المأكل وأضاف المشرب والملبس، والمنكح، والمسكن.

أما الروح فهى: جسم نورانى خفيف وطيفة ربانية أودعها الله سبحانه فى جسم الإنسان لتُقَوِّمَ له سوق حياته.

وغذاء هذه الروح يختلف تماماً عن غذاء قرينها الجسد فغذاؤها فى كثرة العبادة والخشوع والذكر والشكر وغذاؤها الخلوة والمناجاة والدعاء والبكاء من خشية الله وملبسها اللوم والخضوع ومسكنها الأنس بالله عز وجل وزواجها فى العمل بكل ذلك فى الدنيا والإخلاص فيه.

ولكل واحدة منهن طريق لاكتسابها

١- الروحانية بالتفكر والاعتبار.

٢- الملكية القيام والصيام.

٣- الربانية وهى الانقطاع لعبادته وموالاة طاعته.

وقوة كل منهما على حسب مراعاة العبد له فى غذائه واهتمامه بذلك فإذا اهتم بالجسم وغذائه واشتغل به عن الروح قوى وقوت شهوته وغلبت عليه وضاعت من ذلك ارادته وعزيمته، وكلما أرادت الروح أن تمده بالإرادة والعزيمة قوى عليها وضعفها وقهرها وصار حينئذ صاحبه صاحب نفس شهوانية وهى وليدة اشتغال العبد بمادته الجسمية فتصبح سبعية أو بهيمية أو شيطانية وهؤلاء هم أنواع النفس الامارة فافسدت تلك الأمارة على العبد روحه وقهرتها وضعفتها ودمرت إرادتها والعياذ بالله وأفسدت الإثنين معاً الروح والبدن، لذا كانت الروحانية عاملاً مهماً لأنها تعمل على إظهار الإنسان فى ثوب إيمانى جديد جذاب متين، فإذا اهتم العبد بهذه الناحية الروحية وقام بتغذيتها بالتوبة النصوح والخشوع والخضوع والخلوة للذكر والدعاء والخوف والرجاء والملامة على ما سلف من الذنوب ورواها بكثرة البكاء والسهر فى ظلمة الليل للتهجد والدعاء قويت بإذن الله لا محالة بذلك كله روحه وقويت إرادتها وشدت عزيمتها وانصلحت وأصلحت معها البدن أيضاً والإنسان كله وهذبته تهذيباً كريماً واكتسب بقوتها هذه وقوة إرادتهاوعزمها النفس المطمئنة واللوامة وهما من الروحانية فإن الروحانية بتحقيقها ترتقى روح العبد إلى عنان السماء وتحلق وتتطوف حول العرش وتسبح فى رياض الجنات جنات الذكر والشكر والخلوة والعبادة وتستقر فى بيتها المستنير وهو بيت الأنس بالله جل وعلا والإطمئنان بذكره قال تعالى : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد :٢٨] ويبقى لنا أن نسأل إذا كانت هذه الدرجة وذلك السر فى مثل هذا الجمال وهذه الروعة فكيف يستطيع الإنسان أن يحقق الروحانية

كيف يتحصل على هذه الدرجة وذلك السر العظيم ونجيب فنقول بإذن الله لكى يتحصل العبد على سر الروحانية فلابد أن يحقق لها شرطين وهما التفكر والإعتبار لأنهما السر فى اكتسابها وتحقيق الروحانية.

«أولاً التفكر»

والتفكر له شأن عظيم وفضل كريم وقد أمر الله تعالى عباده جميعاً بالتفكر فى آلائه والتعرف على نعمائه ومخلوقاته وعجيب صنعه وبديع خلقه فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس:٢٨] وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ..﴾ الآية إلى قوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

أما المحمود فهو أن يتفكر الإنسان فى آلاء الله سبحانه ومخلوقاته. والمذموم أن يتفكر فى الله أى فى الذات العلية الذات الإلهية وهذا حرام ولا يجوز وقد حذرنا رسول الله ﷺ ونهانا عن هذا التفكر ورغب فى النوع الأول فقد ورد فى الحديث رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله» أخرجه الطبرانى والبيهقى وقال بشر الحافى لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى ما عصوه فالله عز وجل عظيم فى شأنه عظيم فى خلقه عظيم فى سمائه عظيم فى ارضه عظيم بين ملائكته عظيم فى

بديع ما صنع وفى جميع ما فرق وجمع . . فلو تفكر الناس فى هذه العظمة لاستحوا من هذه الآية العظيمة أن يعصوه وهو المطلع عليهم. وفقنا الله تعالى جميعاً لذلك الخير.

ثانيا: سر الملكية

وهى نسبة إلى الملائكة وهى الدرجة الثانية للترقى بروح العبد إلى منزلة (صفاء الود) وفى هذه الدرجة نتعرف كيف وبماذا ترتقى روح العبد نفسه؟ من درجة الروحانية إلى درجة الملكية وذلك بشيئين اثنين وهما(القيام والصيام) فبالقيام والصيام تصير روح العبد فى طهارتها وعفتها وزهدها وذكرها وانقيادها لخالقها وبارئها ومصورها والآخذ بناصيتها مثل الملائكة فى هذا الصفاء. والطاعة والإقبال فتصبح نفس العبد بذلك وكانها نفس نورانية لا تعرف للمعصية طريقاً وكانها جبلت وخلقت وفطرت على الطاعة فقط وعصمت من الزلل حتى ببصير فؤادها طاهرا كافئدة الطير حتى لو نظر الناظر إلى صاحب هذه النفس فى صفاته العلوية يشعر كانما ينظر إلى ملك من ملائكة الرحمن لا إلى بشر عادى من عامة البشر فيراه مستنير الوجه ونوره ظاهر كانه كوكب درى قمرى يدور فى فلكه، لذا كان الحسن البصرى رحمه الله لونه أسمر إلا أنه كان مستنير الوجه ظاهر البشاشة والنور ببركة الإيمان حتى أن الناظر إلى وجه يكاد ينسى سمار لون من شدة نوره فلما سالوه عن ذلك النور قال لاننا خلونا بالله فى الليل بالقيام فكسا الله عز وجل فى قلوبنا ووجوهنا من نوره فاصبحت مستنيرة بنور الإيمان.

وإن أهل الليل فى ليلهم وهم قائمون، ألذ من أهل اللهو فى لهوهم وهم لاهون ودليل ذلك أيضا من المثل القائل: « كل أناء ينضح بما فيه فإن كان فى الإناء الماء نضح على جسمه الماء وإن كان اللبن نضح اللبن.

وإن كان غيره ينضح الذى به وقلب المؤمن إناءه، ووجهه جسم الإناء فإن كان فى قلبه نور الإيمان ينضح على وجهه من ذلك النور وإن كان الفجور نضح ذلك فيعرف وجه الكافر من وجه المؤمن بإذن الله تعالى، والمعين الذى يستمد منه ذلك النور هو القيام والصيام فإن القيام هو شرف للمؤمن كما ذكرنا وقد مدح الحق سبحانه أهل الليل القائمين له والناس نيام فقال سبحانه ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧, ١٨].

ووصفهم بأنهم هم أهل العلم والخشية وهم المميزون عند الله على سائر خلقه فقال سبحانه فى شأنهم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] وقال يوصى نبيه ﷺ: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وأوصى رسول الله ﷺ أمته بقيام الليل وأخبر أنه سببا لدخول الجنة. فعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذى(١)

---

(١) أخرجه الترمذى (٣/ح١١٤٢ فى الفتح) ومسلم(١/١٥٣٨/ح٢٠٧) وأبو داود ح٣٠٦) وابن ماجه ح ١٣٢٩) والنسائى ح ١٦٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ح٢٢٤٣ ومالك فى الموطأ ح ١٧٦) والنووى ص ٣٦٥/ح١١٧٤).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ زوجته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء»(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وقد بين رسول الله ﷺ لأصحابه ولنا من بعدهم أن أفضل الرجال وخيرهم هم الذين يقومون من الليل لله بالسجود والركوع. فعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» قال سالم فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا. متفق عليه(٣) وكان النبى نفسه ﷺ يقوم لا ينام حتى تتورم قدماه. فعن عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقدغفر لك ما تقدم من ذنب وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» متفق عليه(٤)

ثانيا: الصيام. وهو الامتناع عن المأكل والمشرب وعن سائر الذنوب

---

(١) أخرجه الترمذى .ح٢٠٢) وأبو داود ح ٢٤٢٩ والترمذى ح ٤٣٨ وابن ماجه والنسائى وأحمد فى مسنده ٥٣٥٣.

(٢) أخرجه الترمذى وأبو داءود ح ١٣٠٩ وابن ماجه صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى الفتح (٨/١١٢٢) ومسلم فى الفضائل (٤/١٤٠) والنووى فى رياض الصالحين (ص ٣٦٤/ح١١٧٠)

(٤) أخرجه البخارى فى الفتح (٨/٤٨٣٦) ومسلم/ ح٧٩) المغيرة بن شعبة

والمعاصى لله، وينقسم إلى: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص، كما ذكر أبو حامد الغزالى فى الإحياء.

فصوم العوام هو: الامتناع عن المأكل والمشرب. وصوم الخواص: هو صوم الجوارح كلها عن الذنوب والمعاصى. وصوم خواص الخواص: هو صوم القلب وامتناعه عن الانشغال بغير الله وانقطاعه لذكره وشكره وطاعته.

والصيام: هو أكبر عامل تربوى للنفس البشرية لأنه فيه مخالفة النفس عن شهواتها وملذاتها وهو الحلال فكيف بها إن كانت فى حرام.

وهو يرقى بالنفس إلى الصفاء والإخلاص والرقة والرأفة بعبد الله والصائم يمثل الملائكة فى انقطاعها عن كل المتعلقات المادية وجبلها على الطاعات والنورانيات العلوية.

السر الثالث: الربانية:

وهى الدرجة الثالثة الخاتمة للترقى بالعبد إلى منزلة ودرجة (صفاء الود) وكلمة ربانية: نسبة إلى الرب وهى صفة الربانيين أى بمعنى المقربين إلى الله بالطاعات والمخلصين له فى القربات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات، وهى درجة عالية وفضيلة غالية صعبة المنال وهى درجة خواص الخواص عند الله الذين سعدوا فى الدارين بإذن الله تعالى، فطوبى لمن وصل بمنة الله عليه إلى هذه الفضيلة وتلك الدرجةوحسن مئاب.

ولكى يتحصل العبد على هذه الدرجة العالية فلها سبب للوصول، فيصل العبد إلى درجة الربانية إلى الله جل وعلا إذا حقق شيئين كريمين، وهما الانقطاع لعبادته، وموالاة طاعته.

أولا : الانقطاع لعبادته : فيقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] فإن ذلك هو المقصد الأساسى لخلق الجن والإنس، فيجب الانقطاع لعبادة هذا الخالق العظيم ليقوم المخلوق على الهدف الصحيح . ويقول سبحانه فى الحديث القدسى : « عبدى أطعنى تكن ربانيا »(١) ويقول أيضا : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملئ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك »(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة .

ومعنى الانقطاع للعبادة التفرغ لها ليس المقصود به الرهبانية وملازمة الخلوة بعيدا عن الناس مدى الحياة، فإن من يفعل ذلك يصبح مخالفا للشرع مخالفا للسنة مخالفا للدين الحنيف .

وإنما يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ولكن يحول ذلك العمل المادى إلى عبادة وطاعة لله جل وعلا، بمعنى أن يكون نحو ذلك العمل بمثابة المضطر له من أجل العفة وعدم الحوجة، ويضع فى نيته أن يعمل لله وطاعة له لأنه هو الآمر فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] وقوله سبحانه فى سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

---

(١) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب .

(٢) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب وجاء فى الأحاديث القدسية ورواه الترمذى عن أبى هريرة .

فهذه الآيات الكريمات بينت لنا أن السعى للرزق مطلوب وواجب، ولكن على شرط أن لا يشغل العبد عن ربه ويلهيه وينسيه، وإنما يحوله إلى عبادة يذكره فيها لقوله فى سورة الجمعة: ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾

ولكن الانقطاع لعبادة الله جل وعلا يكون فى تفريغ الوقت الكثير من حظوظ الدنيا ولهوها لذكر الله والخلوة لعبادته وطاعته وأن يجند العبد نفسه لخدمة دينه ويحمل مسئولية الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة على عاتقه ويتفقه لذلك فى دينه ويطلب أبواب العلم حتى يستطيع به التعرف على قيود الجهل والغفلة ويتمكن من أن يعبد الله على علم لا على جهل لأن العابد العالم أحب إلى الله وأقرب من العابد الجاهل وأن العابد الجاهل قد يصيب بجهله فجراً أفجر من فجور الفاجر والعياذ بالله والعابد على جهل لا يعرف مداخل الشيطان وثغراته فهى عنده مفتوحة يدخل الشيطان له منها حيث شاء أما العالم فقد أغلقها وسدها عليه لذا فإن الشيطان من الجاهل قريب وحبيب ومن العالم بعيد وطريد وقد ورد فى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاما وذلك لأن الشيطان يبتدع البدعة فيبصرها العالم فينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه إليها ولا يعرفها» رواه الاصبهانى.

فهذه الدرجة العظيمة الربانية أجدر بالانقطاع لعبادة الله تعالى فالانقطاع يجعل العبد يغير بيئة السوء وصحبته إلى بيئة الإيمان وصحبته

ويغير من منهج الفساد والضلال إلى منهج الطريق المستقيم لطاعة الله وخشيته وكذا يحرص على موالاة الطاعات وفموالاة طاعة الله توصل إلى هذه المنزلة منزلة الربانية وكما قال العلماء: سمى الولى وليا لأنه والى الله تعالى بالطاعة ووالاه الله بالمغفرة وقد أوصى سبحانه بهذه الموالاة والتمسك بها فقال سبحانه ﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتتفرق بكم عن سبيله**﴾.

فمن قام بهؤلاء الأسرار الثلاثة وشروطهن بقى له واحدة وهى أن يخلو بربه سويعات من الليل بعيدا عن الأنظار فيضرع إلى مولاه وينصب له قدميه ويبدأ بصلاة ويرفع له بالذل يداه فيناجيه بدعائه ويسمعه بكلامه ويشكوا له حاله ويظهر له ضعفه وانكساره وذله وافتقاره ويساله بالإلحاح أن يحفظ عليه هذه النعمة الجديدة المديدة التى اكتسبها بعد ما عبر كل هذه العقبات وحقق الطاعات يحفظ عليه نعمة ودرجة (صفاء الود) صفاء الود لمولاه لأنها حقاً فوزاً عظيمًا وكنزًا كبيرًا ونعمة وحبره وجنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية: «وفقنا الله لذلك أمين.

الفصل الخامس

علامات الولاية

للولاية علامات ظاهرة ومعروفة متى وجدت تلك العلامات فهى تدل على صحتها ومنها:-

١- أن تكون خالصة من شوائب الشرك مثل الدعوة لغير الله والنذر والطواف والقسم والقربة ونحوه.

٢- الولاية لا تتفق مع البدعة فالبدعة تقضى عليها تماماً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. فقد أمر رسوله أن يتبرأ من كل صاحب بدعة وقالوا إن هذه الآية نزلت فى الخوارج وروى النووى فى الأربعين عن الدار قطنى عن النبى ﷺ «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها»(١) وفى رواية أخرى فلا تبحثوا عنها.

٣- الولاية درجة لاتتفق مع حب الجاه والسلطة والعلو فى الأرض لقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

(١) رواه الإمام النووى فى الأربعين عن الدار قطنى.

٤- الولاية درجة تتفق مع الزهد والفقر والافتقار وإن كان غنياً وخشونة العيش.

٥- من علاماتها تفريغ الأوقات للعمل الصالح والتلذذ بالطاعات، وبذلك ما فى الوسع للقربات وإيثاره ذلك على كل المحبوبات.

obeikandl.com